التفكير التداولي عند الأصوليين والمفسرين

Pragmatic thinking among the usulists and the mufassirines commentators

الدكتور: أمبارك بن مصطفى	المركز الجامعي آفلو-الأغواط blembark@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/04/26	تاريخ القبول:2023/12/23	تاريخ النشر:2024/06/26

الملخص:

لقد سعينا من خلال هذا المداخلة الموسومة ب التفكير التداولي عند العلماء العرب الأصوليون والمفسرون أنموذجا إلى قراءة التراث العربي قراءة لسانية حديثة في ضوء المنهج التداولي، فإذا كانت التداولية في أوجز تعريف لها هي علم استعمال اللغة وتعنى بالخطاب وأطرافه، وبالمقام ومقتضياته، فإن توجهات العلماء العرب القدامى نحاة، ومفسرين، وبلاغيين، وأصوليين، لم تكن بعيدة عن هذا المفهوم، إذ أنهم مارسوا المنهج التداولي قبل أن يضيع صيته بوصفه منهجا غربيا.

We sought through this intervention entitled by: "the pragmatic thought of Arab scientists, the Usulists and the commentators (mufassirines) as a model" to give a modern linguistic approach to the Arab heritage in the light of the pragmatic approach, if the most concise definition of Pragmatics is the study of language in use. It is interested in discourse and its surroundings, with its contexts and its requirements, the tendencies of

ancient Arab scientists, grammarians, commentators, rhetoricians and Usulists were not far from this concept, as they had practiced the pragmatic approach long before it was adopted as Western methodology.

Nous avons cherché à travers cette intervention intitulée par: "la pensée pragmatique des scientifiques arabes, les Usulistes et les commentateurs (mufassirines) comme modele" à donner une approche linguistique moderne de l'héritage arabe à la lumière de l'approche pragmatique, si la définition la plus concise de la Pragmatique est l'etude de la langue dans l'utilistion .elle s'interresse au discours et ses allentours, avec ses contextes et ses exigences, les tendances des anciens scientifiques arabes, grammariens, commentateurs, rhetoriciens et Usulistes n'étaient pas loin de ce concept, car ils avaient pratiqué l'approche pragmatique bien avant d'être adoptés comme methdolgie occidental

Pragmatic – usulists- mufassirines

مقدّمة:

لقد تفطن العلماء العرب وفي طليعتهم الأصوليون والمفسرون -في وقت مبكر- إلى أهمية السياق وأطراف التواصل وظروف وملابسات الحديث، في تشكل دلالة الملفوظ القرآني، وأثرها في تأدية معنى العبارة وتوجيهه. خصوصا وأن هؤلاء قد اشتغلوا على الخطاب القرآني، وإن أمورا من هذا القبيل تدخل في إطار جملة من المفاهيم والإجراءات التداولية التي يتحدث عنها

الغربيون اليوم في نظرياتهم، ولكنها كانت موجودة عند علمائنا القدماء، وقد مارسوها في تحليلاتهم اللغوية إلا أنها لم تكن بهذه المسميات.

وانطلاقا مما سبق يمكن أن نتساءل إلى أي مدى يمكن المقاربة بين طرح المفسرين والأصولين والمنهج التداولي؟ أين يتجلى الفكر التداولي عند المفسرين والأصوليين؟ وما موقعه من الفكر اللساني التداولي الغربي؟ وهل يمكن أن تنم جهود هؤلاء في التأسيس لنظرية لسانية عربية تداولية.؟

إن الحديث عن فكر الأصوليين والمفسرين من جهة، والتداولية في الفكر الغربي المعاصر من جهة أخرى يوحي بتصور عميق لأهمية المقام والسياق والتواصل في دراسة الظاهرة اللغوية وانفتاحها على دلالات ومعاني مرتبطة بأغراض المتكلمين ومقاصدهم، تجعل من اللغة نظاما تواصليا يستمد وظيفته من جملة من العلاقات البنيوية والتداولية على أساس أن دراسة اللغة تتم في إطار العلاقة بين المتكلم والمخاطب والظروف والملابسات المحيطة بعملية التخاطب.

ولعل مما أوجبه هذا التصور والدراسات اللسانية الحديثة هو ضرورة العودة إلى التراث الفكري الذي خلفه القدماء، وسبر أغواره للوقوف على القيمة الفكرية له وجهود العلماء فيه، فلا مجال للباحث لمعرفة أحدث العلوم والنظريات إلا إذا عاد إلى ماضيه ومحصه ونقب فيه للوصول إلى دره الثمينة، وكل هذا يقودنا إلى القول بأنه قد كان لعلمائنا قصب السبق في كثير من القضايا اللسانية.

ولكن الإشكال الذي يطرح نفسه أننا حينما نتكلم عن قضية التراث العربي وعلاقته باللسانيات الحديثة تستوقفنا جملة من التجاذبات الفكرية لعل من أهمها ما أكد عليه عبد السلام المسدي بقوله: " ... ومع ذلك ترانا أحد رجلين فإما ناقل لفكر غربي، وإما ناشر لفكر عربي قديم. فلا النقل في الحالة الأولى ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكرا عربيا معاصرا، لأننا في الحالة الأولى نفتقد عنصر العربي، وفي الحالة الثانية نفتقد عنصر المعاصرة. والمطلوب هو أن نستوحي لنخلق الجديد سواء عبرنا المكان لننقل عن الغرب أو عبرنا الزمان لننشر عن العرب الأقدمين"[1].

ولذا نجد أن العلاقة بين اللسانيات الحديثة والتراث العربي قد مرت بمرحلتين:

- المرحلة الأولى: وقد عرفت انبهار الكثير من الباحثين العرب باللسانيات، فتبعها نقد شديد للتراث النحوي والبلاغي، وتشكيك في كفايته الوصفية.

- المرحلة الثانية: وتميزت هذه المرحلة بالعودة إلى التراث العربي ومحاولة اكتشافه وقراءته في ضوء اللسانيات الحديثة[2]

وإذا ما أردنا الرجوع إلى هذا التراث الفكري الضخم الذي خلفه علماء اللغة الأوائل من منظور اللسانيات الحديثة، ينبغي العمل على استعادة هذا التراث لبريقه وحمله على المنظور الجديد، والتأصيل للظاهرة اللسانية العربية واستجلاء مكامنها مع مراعاة الخيوط الفاصلة بين الدرسين اللسانيين العربي والغربي، فلكل درس خصوصياته ومميزاته.

وإذا نظرنا إلى العرب " بحكم مميزات حضارتهم وبحكم اندراج نصهم الديني في صلب هذه المميزات، قد دُعُوا إلى تفكر اللغة في نظامها وقدسيتها ومراتب إعجازها فأفضى بهم النظر لا إلى درس شمولي كوني للغة فحسب، بل قادهم النظر أيضا إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية، مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرا بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين"[3].

ونظرا لأهمية قراءة التراث في ضوء المفاهيم اللسانية الحديثة، ارتأينا استثمار المنهج التداولي كخلفية يستند إليها للبحث في جهود المفسرين والأصوليين ، خصوصا وأن ميدان بحث هؤلاء هو الخطاب القرآني و تفسيره.

1/الفكر التداولي عند المفسرين:

لم يكن المفسرون بعيدين عن المنهج التداولي في تحليلاتهم وفي تعاملهم مع الخطاب القرآني، فقد تناولوا الخطاب القرآني وأخضعوه لمعايير وأسس تعد اليوم من صميم البحث التداولي، كالسياق مثلا وأسباب النزول، وأيقنوا أنه لا يمكن الوصول إلى دلالات ومقاصد الخطاب القرآني إلا باستحضار جملة من القرائن اللفظية والمعنوية، والآليات والأدوات اللغوية، وهذا ما يدلل على وجود أبعاد تداولية أخذت بعين الاعتبار في تفسير النص القرآني.

فقد تنبه المفسرون إلى أنه لا يمكن الفصل بين النص القرآني وسياقه الذي يعين " على فهم المعاني الملبسة في الآيات القرآنية. وقد يتمثل

هذا السياق عندهم في معرفة أسباب النزول، الذي قد يفيد التخصيص أو قد يزيل الإشكال، وقد يعني التعالق والترابط بين الآيات، وقد يتمثل السياق لدى المفسر في نسق الآيات وما يصل بينها من روابط كالعطف والمضادة التي تظهر في ذكر الرحمة بعد العذاب، أو الرغبة بعد الرهبة، أو حسن التخلص، وهو الانتقال من مقام إلى آخر من غير شعور بالانقطاع، وترتيب الآيات"[4].

فالمفسرون اشتغلوا على السياق بنوعيه السياق اللغوي المتمثل في العلاقات اللغوية والتركيبية، وسياق الموقف الذي تمثل عندهم في أسباب النزول، كما أنهم تعاملوا مع النص القرآني باعتباره بنية متكاملة لا يمكن الوصول إلى الغرض المقصود منها إلا باستحضار جملة القرائن المكونة للموقف الكلامي.

وعلى سبيل المثال فالإمام الشافعي من الأوائل الذين تكلموا عن السياق فقد أشار إليه بقوله :"إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان ما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام، أو وسطه أو آخره. وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره. وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله"[5].

فجهود المفسرين تنم على أن دراساتهم وتحليلاتهم وظيفية تداولية فقد " استأثروا بفهم طرق تأليف اللفظ ووجه استعمال الكلام، وبفهم

لمقاصد الخطاب وسياقه وأغراضه كما بحثوا في المعنى وأنواعه، ومن هذه الزوايا ينخرط الخطاب التفسيري في مقولات التواصل/الحوار / المعنى / التأويل / وهي مفاهيم لا ينفك الدرس التداولي يثريها"[6].

وبناء على هذا الكلام نقر بأن المفسرين قد أدركوا أهمية القيمة التواصلية التي يحملها الخطاب القرآني، فهو عندهم خطاب مرسل من الله سبحانه وتعالى إلى عباده عبر قناة للاتصال وهي اللغة، بهدف تغيير المعتقد وإحداث تغيير في حياة المخاطبين.[7]هذا ما يدلل على اهتمام المفسرين ببيان " العلاقات التداولية الحاصلة بين آيات القرآن الكريم، متجاورة أو متباعدة، ومن هذه العلاقات نذكر: التفسير والبيان"[8].

فالمفسرون كانوا يدركون أنه لا يمكن الوصول إلى دلالة الآيات القرآنية إلا باستحضار القرائن الحالية والمقالية التي تمثل السياق بنوعيه المقامي والمقالي.

ومن بين القضايا التي طرحها المفسرون ويمكن أن تدخل ضمن الطرح التداولي قضية المكي والمدني التي لها علاقة مباشرة بالمخاطب وبزمان الخطاب ومكانه، ويتوقف عليها تحليل الخطاب، فالخطاب المدني موجه لأهل المدينة، والخطاب المكي موجه لأهل مكة، كما لا يمكن أن نغفل عن العلاقات الاجتماعية التي تميز المجتمع المكي عن المجتمع المدني،" فسياق الحال بين مكة والمدينة مختلف، فأهل مكة قبل الفتح كانوا كافرين جاحدين بنبوة الرسول (ص)، وأهل المدينة مؤمنون به مصدقون برسالته، فأقتضى حال الرسول مع أهل مكة تسليته وتثبيته على الدعوى بذكر ما لقيه الأنبياء قبله الذين أرسلوا إلى الأمم السابقة من العنت والمشقة والعناد

مع أقوامهم ... بينما حال أهل المدينة مقتضيا تبعا لإيمانهم وتصديقهم قبول أمور التشريع في العبادات والمعاملات"[9] ولذا وضع المفسرون بعض السمات التي تميز الخطابين عن بعضهما البعض:

- سمات الخطاب المكي:[10]

- اثبات العقائد
- الرد على المشركين.
- الاهتمام بذكر قصص الأنبياء السابقين.

- سمات الخطاب المدني:

- بيان الأحكام التشريعية.
- الرد على اليهود والنصارى.
- كشف المنافقين وذكرهم.
- بيان الفتاوى الشرعية وذكر غزوات النبي (ص)

فالفرق بين الخطابين المكي والمدني فرق خطابي أساسا يعتمد على الموضوعية التي تعتمد بدورها على الأحوال المكانية والزمانية في المسموع مكان أو زمان نزوله، وفي هذا إشارة عميقة لسياقي النص والموقف عند المفسرين[11].

كما لم يغفل المفسرون عن الإشارة إلى أهمية المكي والمدني في بيان دلالات الخطاب القرآني وتوجيهها فينبغي على المفسر أن " يعرف المكي من المدني ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم

إليه في آخر الإسلام، وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره"[12].

وقد تكلم المفسرون أيضا عن أسباب النزول التي تقابل سياق الحال والمقام، إذ بينوا أهمية المقام في توجيه الدلالة المقصودة من الخطاب، فالخطاب القرآني " يأتي في الغالب مجردا ليحكم على حياة الناس كلهم، ويحمل في طياته أمرا أو نهيا يتجاوز زمان نزوله، وملابسات ذلك أيضا، بينما يرد سبب النزول حاملا صورة واقعية تصلح لأن يحكم النص عليها وعلى أمثالها، ولا يغفل سبب النزول ملابسات الواقعة وما ترتبط به من بيئة وزمان مما يسهل إدراك الحكمة التي جاء النص ليراعيها ويتعاهدها في صورة الأمر أو النهي المجرد."[13] فسبب النزول بيان للأحداث والملابسات التي تحيط بالخطاب القرآني.

كما أن سبب النزول يبين أيضا " حال المخاطب وواقعه الذي نزل القرآن ليعالجه ... ولا تقتصر أحوال الخطاب على معرفة حال المخاطب، بل يدخل في ذلك حال المخاطب نفسه وحال الخطاب من جهة كونه خطابا دون أن ينسب إلى قائله. ولا شك أن سبب النزول يبين حال المخاطب وما يلابسه من واقعه أو سؤال أو نحو ذلك وكذلك حال المخاطب من كونه راضيا أو ساخطًا عن المخاطَب أو عن الواقعة أو السؤال، فإن ذلك كله يعبر عن حال المخاطب، وهو لاريب يساهم إلى حد كبير في إدراك بلاغة النص النازل، وتذوق مناسبة ألفاظه، وقدرتها في أداء الرسالة المرجوة من نظمها"[14].

فمعرفة سبب النزول والمكي والمدني تعتبر قرائن تداولية يستحضر من خلالها السياق، والمقام، والمتكلم، والمخاطب، والزمان، والمكان، فهذه

المفاهيم تسهم بشكل كبير في بيان المقصود من الخطاب القرآني وبيان معانيه ودلالاته وأحكامه. فالمفسرون " من أسبق العلماء الذين اهتموا بالسياق واستعانوا به كوسيلة مهمة من وسائل الكشف عن المعنى المراد للشارع الحكيم".[15] فحللوا النص القرآني باستحضارهم للسياق اللغوي فدرسوا النص من الناحية الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية، ثم تناولوا الشق الآخر من السياق وهو سياق الحال أو المقام وهو الذي يتجلى فيه الجانب التداولي فوقفوا على القرائن والأحوال والملابسات المرتبطة بالنص القرآني، فلا مجال عندهم للفصل بين السياقين لأنهما معا يسهمان في وضوح الدلالة والمعنى.

وإجمالا لما سبق يمكن القول أن حديث المفسرين عن أسباب النزول، والمكي والمدني، وأطراف التخاطب هي قضايا تعد من صميم البحث التداولي، وقد استثمرها المفسرون كآليات في تحليلهم للنص القرآني وقدموا من خلالها طروحات تجاوزت ما قدمه المحدثون في ميدان تحليل الخطاب ولسانيات النص اليوم.

2/الفكر التداولي عند الفقهاء والأصوليين:

لقد كانت جهود الفقهاء والأصوليين امتداد لما قدمه أقرانهم في ميدان البحث في النصوص الدينية وما يتعلق بها من أحكام، فقدموا في طروحاتهم وتحليلاتهم الكثير من الآليات التداولية التي اتخذوها كأدوات لاستنطاق النصوص الشرعية واستنباط الأحكام منها. فالطرح الأصولي "جزء من منوال بياني عام وصل في مرحلة زمنية متأخرة نسبيا من العطاء العلمي للحضارة العربية الإسلامية إلى صياغة يكمل فيها بعض العلوم ومنها النحو

والبلاغة وبعض العلوم الأخرى كالأصول والكلام والمنطق، وقد عبر الأصوليون قديما عن هذا الترابط بالعلوم الأخرى، فأسموه بالاستمداد، فرأوا بأن علم الأصول يستمد من ثلاثة علوم هي: علم الكلام والعربية والأحكام الشرعية"[16].

وعلى سبيل المثال فعلماء الأصول قد استفادوا من " علم المعاني ووظفوا معطياته واستثمروها في دراسة النصوص الشرعية، ولا سيما القرآنية، وكان ذلك ضمن الرؤية التداولية، وقد عادت تلك الممارسات التطبيقية بفائدة علمية معتبرة على علم المعاني نفسه، فقد خدمت مساهمات أصحاب هذا العلم، أعني الأصوليين، هذا الفرع البلاغي وعمقت مفاهيمه ووسعت آفاقه"[17].

فالملاحظ أن الأصوليين كانوا للمنهج التداولي أقرب من النحاة، فقد تميزت دراستهم بالاستقصاء والدقة والشمولية، فكان فهمهم لطرق تأليف الكلام وأوجه استعماله وإدراك مقاصده وأغراضه، وبحثهم لظاهرة الأفعال الكلامية، ومراعاتهم لأطراف التخاطب والسياق كلها مفاهيم تؤكد على دقة منهجهم[18].

فوعي الأصوليين بأهمية العملية التبليغية " من خلال نموذج متميز هو القرآن، ذلك أن كامل عناية الأصوليين كانت منصبة على إبراز خصوصيات الإعجاز النصي، وكيفية تلقي المكلفين للآيات القرآنية، بوصفها جملة من الأفعال القابلة للإنجاز والعمل وهم بذلك يجيبون عن السؤال الذي أثار المحدثين حول كيفية تحويل القول اللساني إلى فعل منجز حقيقة"[19].

والأصوليون في دراستهم ربطوا اللغة بواقعها الاستعمالي التواصلي وذلك من خلال ربطهم بين المقال ومكوناته والمقام التخاطبي، وهذا من خلال رؤيتين مركزيتين هما:

الأولى: تتمثل في مباحث الدلالة اللفظية، وقضايا الدليل والاستدلال، إذ جاءت رؤيتهم للعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفسر، والنص والظاهر، ولحن الخطاب ومفهوم المخالفة، أكثر ثراء وغنى من طرح سائر اللغويين لها.

الثاني: يتمثل في جملة من المسائل النحوية المتصلة بالدلالة التركيبية، أو ما يمكن تسميته بنحو المعاني.[20]

ويمكن القول في هذا السياق أن الأصوليين " من هذه الجهة التداولية قد استأثروا بالبحث فيما فرط فيه كثير من النحاة، وذلك من جراء فهمهم لطرق تأليف الكلام وأوجه استعمالاته وإدراك مقاصده وأغراضه، وما يطرأ عليها من تغيير ليؤدي معاني متعددة، ومن ذلك بحثهم في ظاهرة الأفعال الكلامية (ضمن نظرية الخبر والإنشاء)، وكمراعاة قصد المتكلم وغرضه، وكمراعاة السياق اللغوي وغير اللغوي، وتحكيمه في الدلالات"[21].

أما فيما يخص نظرية الأفعال الكلامية فقد بحثوها ضمن نظرية (الخبر والإنشاء) ، وكانت غايتهم من ذلك الوصول إلى الدلالات والأغراض التواصلية التي توحي بها العبارات في النص الشرعي للوصول إلى الأحكام الشرعية، كما أن عملهم هذا قادهم الى وضع واكتشاف أفعال كلامية فرعية

جديدة منبثقة عن الأفعال الكلامية الأصلية، لم يتعرض لها المعاصرون[22]. فالمنهج الاستقرائي التحليلي مكن الأصوليين من استنباط الأغراض التي تنبئ بها الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني.

فقد أدرك الأصوليون أهمية الفعل الكلامي باعتباره المحرك الأساسي للعمل التخاطبي، كما هو الحال في الدرس التداولي الحديث.

كما استحضر الأصوليون السياق في تحليلاتهم وكانوا على " قناعة بحدود الإطار العام للنص القرآني، ولذلك أسسوا قواعد تساعد على فهم القرآن، وتدبره: مثل ثنائيات: العام والخاص، المطلق والمقيد، المجمل و المفصل،..."[23].

وقد ذهب ابن القيم إلى أن " السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته"[24].

وقد اعتمد الأصوليون مجموعة من المبادئ التداولية في فهمهم للخطاب القرآني لعل من أهمها:

- لا يمكن فهم النص دون استخدام القدرات العقلية للمخاطب، لأن اللغة مؤسسة على أمور مشتركة بين المتخاطبين مثل المعارف الإدراكية والأعراف اللغوية والاجتماعية وغيرها.

- اللغة عند الأصوليين نظام من الدلالات، وليست نظاما من العلامات كماهي عند اللغوي دي سوسير وأتباعه، وذلك أن الأصوليين أعادوا تعريف " ثنائية الوضع والاستعمال " وضبطوا العلاقة بينهما وأعطوا الأسبقية للاستعمال.

- الاعتماد على السياق في فهم المعنى، ولا يعد المرء متكلما بنطقه كلمة واحدة معزولة عن السياق المعرف لمراده، ولا بد من معرفة المتكلم وعاداته التخاطبية وغير ذلك مما يخصه، فكل هذا يسهم في بيان مراده.[25]

- اهتمامهم بدراسة القرائن الحالية المتمثلة في أسباب النزول والمواقف الملابسة لنصوص الحديث الشريف.

- تقسيمهم الألفاظ إلى عام وخاص ومشترك، والنص على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوصه، وقد يخرج اللفظ من العموم إلى الخصوص[26].

ولعل النظر إلى بعض الشروط التي وضعها الأصوليون في تعاملهم مع النص القرآني تؤكد على أن هذا البعد كان حاضرا في أذهانهم فاشترطوا شروطا منها:

- ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه.

- ألا يغفل عن السنة النبوية في تفسيره.

- أن تعرف أسباب نزول الآيات.

- أن تعرف النظم الاجتماعية عند العرب[27].

فغاية الأصولي ليس أسلوب النص، وإنما مراد المتكلم من النص أهو الأمر، أو الوجوب، أو التخيير ويكون ذلك باستحضار المقام والزمان والمكان والعلاقات الاجتماعية والظروف الملابسة للخطاب فقد "يكون طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة، ثم إن كان نصا لا يحتمل كفى معرفة اللغة، وإن تطرق إليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ. والقرينة إما لفظ مكشوف كقوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) والحق هو العشر، وإما إحالة على دليل العقل كقوله تعالى (والسماوات مطويات بيمينه) ... وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة أو مع قرائن من ذلك الجنس أو من جنس آخر حتى توجب علما ضروريا بفهم المراد أو توجب ظنا، وكل ما ليس له عبارة موضوعة في اللغة فتتعين فيه القرائن..."[28]

فمعرفة قصد المتكلم أو الشارع الحكيم لا تتأتى إلا بالقرائن الحالية و المقالية التي تعتبر أداة مهمة لمعرفة قصد المتكلم الذي يعتبر قرينة تداولية لم يغفل عنها علماء الأصول قديما. يقول ابن القيم " من عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده، والألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة أو كتابة أو بإماءة، أو دلالة عقلية أو قرينة حالية أو عادة مطردة لا يخل بها"[29].

ويذهب الإمام الشاطبي أيضا إلى أن الأساس في دراسة الخطاب هو الوصول إلى المقاصد التي ينبني عليها هذا الخطاب حيث يقول:" أن يكون الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا أيضا كل المعاني، فإن المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهوما دونه..."[30].

فالأصوليون لم يتعاملوا مع بنيات النص القرآني باعتبارها بنيات مجردة معزولة عن سياقها الاستعمالي، بل تجاوزوا ذلك إلى الاحتفال بالمعنى، والتعامل مع النص القرآني باعتباره خطابا منفتحا على مفاهيم وأسس لسانية خارجية تبرز سماته وخصائصه، ثم إن هذا المبدأ جعلهم ينطلقون من واقع اللغة الاستعمالي الذي يجعل من النص القرآني في نظرهم خطابا إنجازيا منجزا في مقام معين موجها إلى مخاطب معين لأداء غرض تواصلي معين، ولعل هذا ما جعل غاية علماء الأصول الوصول إلى مقاصد وأغراض الشارع الحكيم من النص القرآني ضمن سياقات الكلام المختلفة. فالكلام أو الخطاب " ينبني على قصدين: أحدهما يتعلق بالتوجه إلى الغير، والثاني يتصل بإفهام هذا الغير"[31].

والأصوليون يلتقون مع التداولية اليوم في نقاط عديدة من خلال معالجتهم لكثير من القضايا بدء من تأكيدهم على أهمية اللغة كوسيلة إجرائية للوصول إلى الأغراض والمقاصد وتحليل الخطابات، واهتمامهم أيضا بدلالات الخطاب ومقاصده، ومنشئه ومتلقيه، واستحضارهم للسياق والمقام

من خلال ربطهم للنصوص بسياقاتها ومقاماتها... فكل هذه المفاهيم والإجراءات لم تغب عن الدرس الأصولي، وهذا إن دل إنما يدل على الدقة وبعد النظر ونضج العقل الأصولي. الذي سبق في كثير من القضايا النظريات اللسانية اليوم.

وفي الختام لا يسعنا إلا القول أن جهود علمائنا القدماء من نحاة وبلاغيين ومفسرين وأصوليين هي جهود جبارة كشف من خلالها هؤلاء عن براعتهم ونضج فكرهم وجودة قريحتهم، ودقة منهجهم فأسسوا لدرس لغوي كان له السبق في كثير من القضايا اللغوية التي طرحتها النظريات اللسانية الغربية اليوم.

وإن كان هناك اختلاف بين هؤلاء في المنهج والطروحات فهذا لا يعني أن هناك تقاطعا بينهم " فأعمالهم يكمل بعضها بعضا، وليس أدل على ذلك من أن البلاغيين أخذوا عن النحويين أهم أصل من أصول النحو، وهي مقولة (الأصل) ... وهذا ما يدعوا إلى ضرورة التخلص من مبدأ الاستقلالية في الدرس اللغوي، والنظر إلى أعمال هؤلاء بهدف استصفاء نظرية لغوية تعنى بالتراكيب منظورا إليها من وجهة تداولية"[32].

فهذه الجهود إذا جمعت وخضعت للدراسة الجادة وللتمحيص يمكن أن تسهم في تأسيس نظرية لسانية عربية لها جذور ضاربة في عبق الأصالة، ولها مفاهيم وإجراءات لسانية حديثة. يمكن أن تعكس القيمة العلمية والفكرية لتراثنا.

ومن هنا يمكن القول أن التصورات والرؤى التي طرحها المفسرون والأصوليون في معالجتهم للخطاب القرآني، والفكر اللغوي عموما، إضافة إلى ما قدمه علماء العرب من نحاة، ولغويين، وبلاغيين يمكن أن تسهم في التأسيس لنظرية تداولية عربية، كما أنها ستسهم في مد جسور التلاقي بين الطروحات التي تبناها الدرس التداولي المعاصر والتراث اللغوي العربي.

الهوامش والإحالات:

1- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، 1986م. ص 12.

2- ينظر: معاذ بن سليمان الدخيل، منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية، مقاربة تداولية، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، ط1، 2014م، ص 56.

3- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، 1986، ص 26.

4- خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ص 129.

5- محمد بن ادريس الشافعي، الرسالة، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 52.

06- بومنقاش الرحموني، الضوابط التداولية للنص الديني، التفسير أنموذجا، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسة، الرباط، ص 06.

07- ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، ص 249.

08- هادي نهر، علم الدلالة في التراث العربي، ص 273.

09-ردة الله الطلحي، دلالة السياق، ص 115.

10- ينظر: محمد صفاء شيخ إبراهيم حقي، علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، مج،2، ص 204.

11- ينظر: المرجع نفسه، ص 115.

12- محمد ابراهيم حقي، علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، مج 2، ص 208.

13- عماد الدين محمد الرشيد، أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، دراسة مقارنة بين أصول التفسير وأصول الفقه، دار الشهاب، 1999م، ص 42.

14-المرجع نفسه، ص 58.

15- ردة الله الطلحي، دلالة السياق، ص 103.

16- محمود طلحة، منوال الأصوليين في تحليل الخطاب، دراسة في المبادئ التداولية، مطبعة بن سالم، الأغواط، الجزائر، ط1، 2013م، ص 40 - 41.

17- مسعود صحراوي، الأفعال الكلامية عند الأصوليين، دراسة في ضوء اللسانيات التداولية، مجلة اللغة العربية، العدد 10، الأغواط، ص 186.

18- ينظر: المرجع نفسه، ص 88.

19- نعمان بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، إسلامية المعرفة، السنة الرابعة عشرة، العدد 54، 2008م، ص 121.

20- ينظر: المرجع نفسه، ص 128.

21- المرجع نفسه، ص 82.

22- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 132.

23-مسعود صحراوي، تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، مجلة الآداب واللغات، العدد 07، جوان 2011م، جامعة الأغواط، ص 82.

24- ابن القيم، بديع الفوائد، م4، ص 1314.

25- مسعود صحراوي، تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، ص 83.

26- هادي نهر، علم الدلالة في التراث العربي، ص 274.

27- المرجع نفسه، ص 275

28- أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ط1، 1333هـ، ج1، ص 339.

29- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا لبنان، 1987م، ج1، ص 218.

30- الشاطبي، الموافقات، تقديم بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1997م، ج2، ص 138- 139.

31- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 214.

32- عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات التداولية، ص 154.

قائمة المصادر والمراجع:

- بومنقاش الرحموني، الضوابط التداولية للنص الديني، التفسير أنموذجا، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسة، الرباط،

- هادي نهر، علم الدلالة في التراث العربي، دار الأمل للنشر والتوزيع، اربد الأردن، ط1، 2007م.

- أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ط1، 1333هـ، ج1.

- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م.

- محمد ابراهيم حقي، علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

- محمد صفاء شيخ إبراهيم حقي، علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

- محمد بن ادريس الشافعي، الرسالة، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

- محمود طلحة، منوال الأصوليين في تحليل الخطاب، دراسة في المبادئ التداولية، مطبعة بن سالم، الأغواط، الجزائر، ط1، 2013م.

- مسعود صحراوي:

الأفعال الكلامية عند الأصوليين، دراسة في ضوء اللسانيات التداولية، مجلة اللغة العربية، العدد 10، الأغواط.

التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005م.

تداولية الخطاب القرآني عند الأصوليين، مجلة الآداب واللغات، العدد 07، جوان 2011م، جامعة الأغواط.

- معاذ بن سليمان الدخيل، منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية، مقاربة تداولية، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، ط1، 2014م.

- نعمان بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، إسلامية المعرفة، السنة الرابعة عشرة، العدد 54، 2008م.

- عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات التداولية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004م.

- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، 1986م.

- عماد الدين محمد الرشيد، أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، دراسة مقارنة بين أصول التفسير وأصول الفقه، دار الشهاب، 1999م.

- ابن القيم الجوزية:

إعلام الموقعين عن رب العالمين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا لبنان، 1987م.

بديع الفوائد، م4، تح: علي بن محمد العمران، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، د ط، د ت.

-ردة الله الطلحي، دلالة السياق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1424هـ.

- الشاطبي، الموافقات، تقديم بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1997م، ج2،

- خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، إربد .الأردن، ط1، 2008م.